الفصل الثامن

علينا أن ننبه القراء إلى ضرورة البحث عن حقائق الأمور

أعتقد أن ما قلته إلى الآن عن النصوص الأولى لفتنة عثمان فيه كفاية ، فأنا لم أشأ أن أحقق هذا الحادث أو أبحث عن الحقيقة فيه ، وإنما أردت أن أقول للقارئ : إننا ـ مع الأسف الشديد ـ لا نقرأ القراءة الكافية قبل أن نكتب . وبين يدى الآن كتاب اسمه « الحسين بن على » تأليف توفيق أبو علم ، والكتاب صغير ولكن كله نُقُولٌ ، وهذه هى الطبعة الثالثة ؛ لأن مثل هذا الكتاب يباع بسهولة تامة ؛ فإن الناس كلهم يحبون الحسين ـ رضى الله تعالى عنه ـ لأن يزيد الأموى أمر بقتله فقتل ، ولكن لا المؤلف ولا غيره سأل نفسه : ولماذا قتل الحسين ؟ والجواب : لأنه اتجه إلى العراق لطلب الخلافة .

ثم نسأل : وبأى حق طالب بالخلافة ؟ إنه كان حقّاً شابًا نقيّاً عاقلاً هادئاً ، ولكن أكان له الحق فى طلب الخلافة ؟ يقولون : أجل ، كان له الحق ، ونسأل : ولماذا ؟ والجواب : لأنه

ابن على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ ونسأل : وهل هذا كان يكفى لترشيحه للخلافة ؟ يجيبون : نعم ، ولم لا ؟ ألم يكن يزيد بن معاوية خليفة ، وطبعاً الحسين خير منه ؟ والسؤال : لماذا ؟ والجواب الذى يجرى على كل لسان : لأنه كان أفضل من يزيد ، وهذا حق ، ولكن هل هذا يكفى لكى يكون خليفة ؟ والجواب الذى أجيبه أنا ولن تجده فى كتاب الأستاذ توفيق أبو علم : لا .. هذا لا يكفى .. وأنا أقول ذلك لأننى أقرأ النصوص فلا أجد فيها دليلاً واحداً على أن الحسين ـ رضى الله عنه ـ كان من الممكن أن يكون خليفة قويّا وقادراً على القيام بمسئوليات الخلافة .

والكتاب الذى أحدثك عنه كله كلام جميل أو ما نسميه نحن « إنشاء » ، فأنت تقرأ فيه مثلاً أن رسول الله ﷺ عندما أخذ الحسين بين يديه لأول ولادته أذن فى أذنه ، وتعليقاً على ذلك يقول الأستاذ توفيق أبو علم : أرسل رسول الله ﷺ في ضمير الفتى هذا النداء ؛ ليظل أنشودة نفسه اللاشعورية ، وبذلك أقام فى نفسه معبداً ينبض بأحاسيس التقوى ، وفى ضميره شعوراً يفيض بأحاسيس الفضيلة ، ثم لا نختلف عليه ، كما أقام فى نفسه إذ أرسل هذه الكلمة (الأذان) الهادئة مشعلاً يضىء عليه، فلا تخالطه ظلامية أو دجنة فى سبيل حياته المطمئنة ..

وهذا كلام لطيف ، ولكنه غير بليغ ؛ لأن البلاغة هى مطابقة الكلام للمعنى المطلوب ، وليس هنا معنى مطلوب ، أو إننا نحن

لا نعرف أى معنى مطلوب هنا ، والذى يقرأ هذا الكلام يقرؤه محبة فى الحسين لا لكى يفهم شيئاً .

وإذا أردت الحق ـ ونحن نبحث هنا عن الحق ـ فهذا ... يا سيدى كلام فارغ ؛ لأن الكلام الفارغ هو الكلام الذى لا يتكون إلا من ألفاظ خالية من المعنى أو الفائدة .

واقرأ السطور التالية ، وقل لى إن كنت تجد لها وصفاً غير أنها كلام فارغ !! فى تاريخ البلاذرى عن محمد بن يزيد المبرد النحوى بسنده قال : انصرف النبى ﷺ إلى منزل فاطمة فرآها قائمة خلف بابها ، فقال : ما بال حبيبتى ها هنا ؟ فقالت : إن ابنيك خرجا عُدوة وقد غم علىَّ قبرهما ، فمضى رسول الله ﷺ يقفو آثارهما حتى صار إلى كهف جبل فوجدهما نائمين وحية مطوقة عند رأسيهما ، فأخذ حجراً وأهوى إليها ، فقالت : السلام عليك يا رسول الله ، والله ما نمت عند رأسيهما إلا حراسة لهما ! فدعا لها بخير ، ثم حمل الحسين على كتفه اليمنى والحسن على كتفه اليسرى ، فنزل جبرائيل فأخذ الحسين ، فكانا بعد ذلك يفتخران فيقول الحسن : حملنى خير أهل الأرض ، ويقول الحسين : حملنى خير أهل السماء ، وفى ذلك يقول حسان بن ثابت .

فجاء وقد ركبا عاتقيه ... فنعم المطية والراكبان

(ص٢٧ من الكتاب) .

وقل لى : بماذا تخرج من هذا الخبر ؟
لا شىء ، بل إنه لا يصدق حتى بيت الشعر فى نهاية الخبر ليس شعراً البتة .

وأحب أن أقول للسيد توفيق أبو علم : لا يضايقك أن أقول : إن كتابك عن الحسين كلام فارغ ، فمعظم ما تقرأ من الكتب عن الحسين وأخيه الحسن كلام فارغ ، و(برافو) عليك أن استطعت أن تطبع هذا الكلام الفارغ ثلاث مرات ، وكفى إلى هنا عن عثمان وعلى والحسن والحسين .

وننتقل إلى موضوع آخر من موضوعات التاريخ الإسلامى الحافلة بما يسىء إلينا ، ولابد من أن نفتح عيوننا عندما نقرؤها ؛ لأن المسألة هنا ليست مسألة الخطأ أو الكذب فى الخبر، بل إن هذه الأخبار تضر بعقولنا ؛ لأننا تعودنا قراءة الأخبار والحكايات الكاذبة الفارغة وقبولها ، مما يؤدى بعقولنا فى النهاية إلى الهيافة والهشاشة ، ويعطى القارئ فكرة سيئة عن الإسلام والمسلمين .

يقول الفخرى فى كتاب الآداب السلطانية متحدثاً عن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك بن مروان عاشر خلفاء بنى أمية (١٢٦هـ / ٧٤٣م) : وقد بلغ من استهتار الوليد بالمعاصى أن قال له أخوه هشام يوماً : والله لا أدرى إن كنت على الإسلام أم لا . مما

يحكى عن الوليد أنه استفتح فالا في المصحف فخرج ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (إبراهيم ـ الآية : ١٥) .

فألقاه وجعله هدفاً وأخذ يرشقه بسهامه وهو يقول :

تهـددني بجـبـارٍ عنيـدٍ نعم أنا ذاك جـبّـارٌ عنيـدُ
إذا مـا جـئتَ ربَّك يومَ بَعْثٍ فـقلْ : يارب ، خـرَّقني الوليـدُ

(الفخرى : الآداب السلطانية ، ص ١٢١ ـ ١٢٢)

وأنا أقول : من الممكن أن يكون هناك خليفة مستهتر أو جرىء أو وقح أو سكير أو ما شئت ، أما أن يكون هناك خليفة كافر فمن المستحيل !

ومن المستحيل علينا أن نقبل هذا الخبر ؛ لأنه ليس إساءة إلى الوليد بن يزيد فحسب ، بل إهانة لعقولنا أيضاً . ومهما كانت كراهية الواحد منا لبني أمية فإن الأمر ينبغي ألا يصل بنا إلى احتقار عقولنا وإهانة أنفسنا ، وعند طبع كتاب الفخرى ينبغي أن ننبه القارئ في الهامش إلى أن مثل هذا الخبر مستحيل وغير مقبول .

وبمناسبة تعيين عبد الملك بن مروان للحجاج بن يوسف الثقفي يقول اليعقوبي (جـ٢ ص ٢٧٣) : كتب إليه عبد الملك كتاباً بخطه يقول : يا حجاج ، فقد وليتك العراقين صدقة (العراقان هما العراق وفارس) فإذا أتيت الكوفة فطأها وطأة

يتضاءل منها أهل البصرة ، وإياك هويني الحجاز ؛ فإن القائل هناك يقول ألفاً ولا يقطع بهن حرفاً ، وقد رميت الغرض الأقصى فارمه بنفسك وأرد ما أردته بك والسلام ، (يريد منه أن يكون عنيفاً مع أهل العراق ولينا مع أهل الحجاز ؛ لأن أهل الحجاز يتكلمون كثيراً ولا يعملون شيئاً . وقد رميت العراق بأكبر ما عندى ـ وهو أنت ـ فارمه بنفسك وحقق لى ما أريد) .

ويستمر اليعقوبى فى رواية الخبر فيقول : فلما قدم الكوفة صعد المنبر متلثماً بعمامته متنكباً قوسه وكنانته . فجلس على المنبر ملياً لا يتكلم حتى هموا أن يحصبوه ، ثم قال : « يا أهل العراق ! يا أهل الشقاق والنفاق والمراق ومساوئ الأخلاق ! إن أمير المؤمنين فتل كنانته ، فعجمها عودا عودا ، فوجدنى أمرَّها عوداً وأصلبها مكسراً ، فرماكم بى ، وإنه قلدنى عليكم سوطاً وسيفاً ، فسقط السوط ، وبقى السيف » وتكلم بكلام فيه توعد وتهديد ، ثم نزل وهو يقول :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا　　　متي أضع العمامة تعرفوني

والخبر مشهور جدّا ووارد فى كل كتبنا ، وبعضهم يزيد عليه تفاصيل غير معقولة ، فيقول ابن قتيبة الدينورى فى كتاب الإمامة والسياسة (جـ٢ ص ٢٥ ـ ٢٦) : إنه بعد أن قال الحجاج هذا الكلام حصبه الناس ، فلما أكثروا عليه خلع عمامته فوضعها على ركبته ، فجعلت السيوف تبرى الرقاب ، فلما سمع

الخارجون الكائنون على الأبواب وقيعة الداخلين ورأوا تسارع الناس إلى الخروج تلقوهم بالسيوف .

فَرَوَّعُوا الناس إلى جوف المسجد (أخذوا فى الفرار وتعقبهم الجند) ولم يتركوا خارجاً يخرج ، فقتل منهم بضعة وسبعون ألفاً حتى سالت الدماء إلى باب المسجد وإلى السكك .

والخبر مشهور جدًا حتى لا تكاد تجد من يشكك فيه ، وعندما تقرؤه عند الطبرى مثلاً فإنك تجده يقع هناك فى صفحات .

ولكننا نقول : إن صلب الخبر معقول ، أما التفاصيل فلا ؛ فالحجاج هدد أهل الكوفة ، وهذا معقول . أما أن يقول لهم إنكم أهل الشقاق والنفاق والمراق وسوء الأخلاق ، فصدقنى ؛ إننا نحن الذين نعرف الحجاج نستبعد ذلك .

فقد كان الحجاج فى حقيقة أمره رجلاً مسلماً مؤمناً ولا يمكن أن يصدر عنه هذا الكلام فى مخاطبة ناس كان عليه الآن أولاً أن يستدرجهم وأن يهدئ خواطرهم ، فهؤلاء ليسوا كفرة ولا أعداء الإسلام ، إنما هم ناس لا ترضيهم سياسة بنى أمية ، فالمطلوب - إذن - هو إفهامهم سياسة بنى أمية أولاً والتقرب إليهم ، أما القول بأن الحجاج قتل منهم فوق السبعين ألفاً فكلام غير مقبول ، وأين هو المسجد الذى يسع سبعين ألفاً ؟

لقد كان الحجاج رجل دولة ، أى رجلاً يخدم الدولة ، وكان المطلوب منه أن يسترضى أهل الكوفة لا أن ينزل بهم مذبحة ،

ثم إن الحجاج كان ـ رغم ما يقال لك ـ رجلاً تقيّاً له دور فى تدوين المصاحف ، وكان رجلاً معمراً هو الذي بنى مدينة واسط ، وهناك أخبار تدل على أنه كان رجلاً لطيفاً إذا لم يكن هناك ما يدعو إلى الغضب ، وهو لم يكن مجرد رجل قاس يريق الدماء كالمجنون ، بل كان رجل سياسة ، وله أثر كبير ودور عظيم فى حرب الترك ونشر الإسلام ، وكان رجلاً مصلياً صائماً مزكياً ، ولكنه ـ كما قلت لك ـ رجل دولة لا يتساهل مع الخارجين على الدولة ، ولم يكن كل الذين حضروا فى المسجد خارجين على بنى أمية ، بل كان فيهم ناس كثيرون بعيدون عن السياسة مثلى ومثلك وقد أتوا للصلاة ، فما معنى قتلهم ؟

أساس الخبر إذن سليم ، أما التفاصيل فهى فى كل كتاب على صورة ، وكل ما يرمى إليه المؤرخون هو تشويه سمعة بنى أمية ، ونحن اليوم لا نريد تشويه سمعة بنى أمية ، بل نحن نريد الحقائق ؛ فإن بنى أمية لم يكونوا بالسوء الذى نتصوره ، وهل يمكن أن يكون عبد الملك بن مروان بن الحكم رجلاً شريراً ثم يفتح تلك الفتوح كلها ؟ لقد كان يحارب الخارجين عليه الذين كانوا يريدون قتله والحلول فى الخلافة محله مثل عبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير والمختار بن عبيد الثقفى ، ولم يكن فيهم فى الحق من يساويه ، وإذا كان قد أقام الحجاج على العراق . فهو لم يقمه ليسفك الدماء بل ليهدئ الأحوال ، ويرد الناس إلى العقل ، وهو ـ من غير شك ـ كان

أصلح للخلافة من عبد الله بن الزبير الذى كان بخيلاً قصير النظر ، وفى يوم من الأيام دخلت فى طاعته مصر والعراق واليمن إلى جانب الحجاز ، ولم يبق مع عبد الملك إلا الشام ثم مصر ، وإذا كان قد انتصر فى النهاية فلأنه كان أفضل وأقدر وأحكم من غيره ؛ ولذلك كان ابنه الوليد بن عبد الملك قد أتم فتح المغرب وفتح الأندلس ، وأقام قتيبة بن مسلم على خراسان ، ففتح بلاد ما وراء النهر ، وقام بأربع حملات تعد من مفاخر تاريخنا الإسلامى . وأقام محمد بن القاسم على الهند ، فما معنى الحملة عليه وإنكار فضله للعداء الذي كان بينه وبين منافسيه السياسيين من العلويين . وماذا كنا نطلب منه ؟ أن يتنازل عن الخلافة لخصومه ؟ وهل كان هؤلاء الخصوم أحسن منه ؟

وتحت عنوان « مثالب بنى أمية » يقول المقريزى فى كتاب « النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » (تحقيق كاتب هذا المقال ونشر دار المعارف ١٩٨٩ فى ص ٣٧ وما بعدها) : فقد عرفنا كيف كان أبو سفيان فى عداوته للنبى ﷺ وفى محاربته وفى إجلابه عليه وفى غزوه إياه ، وعرفنا إسلامه كيف أسلم وخلاصته كيف خلص ، على أنه أسلم على يد العباس (وقد أثبتنا أن ذلك غير صحيح) والعباس هو الذى منع الناس من قتله وجاء به رديفا (أى خلفه على الدابة) إلى النبى ﷺ وسأله أن يشرفه ويكرمه وينوه به ، وتلك يد بيضاء ، ونعمة غراء ، ومقام مشهور ، وخير غير منكور ، فكان

جزاء ذلك من بنيه أن حاربوا عليا ، وسموا الحسن ، وقتلوا الحسين ، وحملوا النساء على الأقتاب (أى نساء بيت الرسول ﷺ والأقتاب جمع قتب ، والقتب الرحل الصغير على قدر سنام البعير ، حواسر ، والحاسرة من النساء هى من ألقت عنها ثيابها ، وهى المكشوفة الرأس والذراعين) وكشفوا عورة على ابن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه ، كما يصنع بذرارى المشركين إذا دخلت ديارهم عنوة ، وبعث معاوية بن أبى سفيان إلى اليمن بُسر بن أبى أرطأة (وكان من كبار أعداء بنى هاشم وأنصار بنى أمية) فقتل ابنى عبيد الله بن العباس ، وهما غلامان لم يبلغا الحلم ، فقالت أمهما عائشة بنت عبد الله بن عبد المدان ترثيهما :

يا من أحس بُنَيَّيَّ اللذين هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدف
أنحى على وَدَجَىْ طِفْلَىَّ مرهفة ... مطرورة وعظيم الإثم يقترف

وقتلوا لصلب على بن أبى طالب ولصلب عقيل بن أبى طالب تسعة ؛ ولذلك قالت نائحتهم :

يا عين جودى بعبرة وعويل ... واندبى - إن ندبت - آل الرسول
تسعة منهم لِصُلْبِ على ... قد اصيبوا وتسعة لعقيل

هذا وهم يزعمون أن عقيلا أعان معاوية على علىّ ، فكانوا كاذبين ، فما أولاهم بالكذب ، وإن كانوا صادقين فما أجازوه خيراً إذ ضربوا عنق مسلم بن عقيل صبراً ، وقتلوا معه هانئ بن عروة ؛ لأنه آواه ونصره .

وأكلت هند كبد حمزة ، فمنهم آكلة الأكباد ، ومنهم كهف النفاق ، ونقروا بالقضيب بين ثنيتى الحسين ، ونبشوا قبر زيد ابن الحسين بن على بن أبى طالب (الإمام الرابع من أئمة الزيدية ، وهو الذى تنسب إليه فرقة الزيدية) وصلبوه وألقوا رأسه فى عرصة الدار تطؤه الأقدام وتنقر دماغه الدجاج ، وقال شاعر بنى أمية :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهديًا علي الجذع يصلب

وقتلوا يحيى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وأسموا قاتله ثائر مروان (أى الآخذ بثار مروان ، الثائر: الذى لا يبقى على شىء حتى يدرك ثأره ، وناصر (الدين) ، وضربوا على بن عبد الله بن العباس بالسياط مرتين على أن تزوج بنت عمه الجعفرية التى كانت عند عبد الملك بن مروان (الملقب بالسجاد لتقاه) وعلى أن حملوه قتل سليط ، وسموا أبا هاشم بن محمد بن على (وهو عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب) ويكنى أبا هاشم ، ويقال : إن سليمان بن عبد الملك دس له شيئاً فمات منه ؛ لأنه كان يخشى منه كمنافس سياسى، ويقال : إنه عندما أحس باقتراب أجله اجتهد فى الوصول إلى الحميمة حتى يتنازل عن حقه فى الخلافة إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس (وقد درج المؤرخون على اعتبار هذا التنازل أو هذه الوصية أساساً شرعيًا لادعاء العباسيين الحق فى الخلافة) وضرب سليمان بن حبيب بن المهلب ابا جعفر

المنصور بالسياط قبل الخلافة ، وقتل مروان الحمار (وهو آخر خلفاء بنى أمية) الإمام إبراهيم بن محمد بن على ، أدخل رأسه فى جراب نورة (والنورة هى الحجر الجيرى ، أو أخلاط من أملاح الكالسيوم والباريوم تستخدم لإزالة الشعر ، والمقصود أنهم أدخلوا رأسه فى جراب مملوء بالجير وتركوه حتى اختنق) حتى مات .

وقتلوا يوم الحرة عون بن عبد الله بن جعفر ، وقتلوا يوم الطف (وهو يوم كربلاء) مع الحسين أبا بكر بن الحسين بن جعفر (بن أبى طالب) .

إلى آخر هذه الجرائم (ص٣٤ من النزاع والتخاصم) وهذه كلها إن صدقت فهى جرائم سياسية ، أى أن جميع هؤلاء المقتولين كانوا منافسين سياسيين لبنى أمية يريدون انتزاع الخلافة منهم ، والسياسة تعمى البصر ، وتضلل الذهن ، وتملأ القلب قسوة ، وتجعل الإنسان يرتكب جرائم لا توصف ، وفى العادة لا يكون صاحب الخلافة أو صاحب السلطان رجلاً واحداً، بل يكون وراءه ومعه ناس أصحاب مصلحة فى أن يظل السلطان فى يده ، وحتى لو مال هو إلى الصلح والتفاهم فإن الذين حوله لا يرضون ولا يتأخرون عن قتله ، وما دام الإنسان قد دخل السياسة وطلب السلطان فهو المسئول عما يصيبه ، وقد سبق أن ذكرنا أن بنى أمية إذا لم يكونوا أصحاب حق فى الخلافة فما هو الأساس الشرعى لمطالبة العلويين بالخلافة ؟

وهل إذا مات على بن أبى طالب ورث الحق فى الخلافة أولاده : الحسن ثم الحسين ثم زيد ، وهكذا ؟ كل ذلك نشأ ـ كما قلنا ـ من أن أحداً لم يضع للخلافة تشريعاً ، بل الكل هنا يجمعون على حق أبناء على بن أبى طالب فى الخلافة .

ثم : هل نحن واثقون من أن كل العلويين كانوا أفاضل ؟ وأنهم لو كانوا قد تولوا الخلافة لما اقترفوا مثل هذه الجرائم ؟ إليك فاقرأ اخبار واحد من أولئك العلويين « إبراهيم بن الحسن ابن زيد فولد إبراهيم وله عقب ومحمد بن إبراهيم فمن ولد محمد هذا ؟ محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن الحسن ابن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب قام بالمدينة ، وكان من أفسق الناس : شرب الخمر علانية فى مسجد النبى ﷺ نهاراً ، وفسق فيه بقينة لبعض أهل المدينة ، وقتل أهل المدينة بالسيف والجوع ، وكان قيامه أيام المعتمد ، وقتل أهل المدينة ، ولم يصل طوال مدته فيها جمعة ولا جماعة » .

(ابن حزم ـ جمهرة أنساب العرب ص٣٩)

فهذا يا سيدى علوى ، وهذا ما فعل !

أقول : إن المشكلة هنا مشكلة عدم وجود دستور للخلافة وحق الأمة فى انتخاب الخلافة ضاع بعد أيام عمر ؛ لأن الخلافة أيام أبى بكر كانت أبا بكر ، وأيام عمر كانت عمر ، أما أيام

عثمان فقد أصبحت عثمان وآل عثمان ، وهذا هو ما أنكرته الأمة، ولكن أحداً لم يصحح ذلك الخطأ تصحيحاً شرعيا بوضع دستور ، فأصبحت المسألة مسألة عنف وقسوة وغدر وغش ، وهذا هو ما ينبغى أن نذكره دائماً ؛ حتى لا نصيب الإسلام بأذى ونلحق به شرور الناس .

★★★